٦

المكتشفون العظام

نصير الدين الطوسي
وابن الشاطر الدمشقي

بقلم
سيد تقي سيد حسين الموسوي
حفظه الله تعالى





المكتشفون العظام

نصير الدين الطوسي تلميذ الإمام جعفر الصادق عليه السلام

وابن الشاطر الدمشقي

بقلم

سيّد تقي سيّد حسين الموسوي

حفظه الله تعالى

www.taqimusawi.com

0096899419461

صندوق البريد ٩٢٠

الرمز البريدي ١١٤

سلطنة عُمان

بسم الله الرحمن الرحيم

العرفان بالجميل

أنا مدين جدًّا في كتبي الأخيرة، وعلى الخصوص هذا الكتاب «المكتشفون العظام»، وكتبي المتعاقبة من «أسرار النفس البشرية». وأيضًا كتبي السابقة «القوى الكونية» و «هكذا تكلّم الإمام جعفر الصادق عليه السلام» و «ورفعناه مكانًا عليًّا» و«بوذا ونور الملكوت» و«هكذا تكلّم الله على لسان داود» و «هكذا ناجى داود ربه» و «كتاب محاورتي مع الشيخ علي المياحي» و «كتاب المباني الأساسيّة للطريقة الأويسيّة» الذي أُسّس بناءً على أسئلته، ذلك للسيد محمد الشوباصي من سوريا، حيث زوّدني بالمراجع القيّمة وساعدني كثيرًا في إتمام كتبي ومراجعتها وتصميمها ونشرها إلكترونيًّا عن طريق مواقع التواصل الاجتماعي والإنترنت. فالشكر له موصول لما آثرني به من خدمات قيّمة لا أنساها، وأسأل الله العليّ القدير أن يوفّقه في حياته في هذه الدنيا وفي الآخرة إنّه سميع مجيب الدعاء.

وأيضًا أشكر زهير من دبي في الإمارات العربيّة المتحدة وجهاد من البحرين لوضع موقع إلكتروني لكتبي، ولا أعرف حقيقة كيف أشكرهما على مأثرة الإيثار التي يتحلّان بها رغم مشاغلهما الكثيرة. فقد ساعداني كثيرًا في نشر كتبي وسهّلا للقارئ العربي الوصول إلى هذه الكتب. فالشكر موصول لهما إلى الأبد وأتمنّى لهما من كلّ قلبي التوفيق في الدنيا والآخرة.

المقدمة

أخاطب الغرب وأقول له: إن ما توصّلتم إليه حديثًا من اكتشافات عجيبة في علم الفلك بالنسبة إلى مرحلة (السائل المطلق) في باكورة نشوء الكون، قد سبقكم إليها إمامنا علي عليه السلام قبل ١٤٠٠ عام بالتفصيل في خطبته عن نشوء الكون. وإن ما توصّلتم إليه منذ أقلّ من عشرين سنة من اكتشافات حول المادة المضادة، قد سبقكم إليها إمامنا جعفر الصادق عليه السلام قبل ١٢٠٠ عام. بل إن تلاميذ إمامنا جعفر الصادق عليه السلام، من أمثال نصير الدين الطوسي، بتقنياتهم الرياضيّة المسمّاة (مزدوجة الطوسي)، وأيضًا نموذج (أوردي ليما)، وبأرصادهم الفلكيّة في مرصد مراغة، قد وضعوا حجر الأساس للنهضة الأوربية قبل كوبرنيك بـ ٢٠٠ عام.

نصير الدين الطوسي مؤسّس المرصد الفلكي المعروف في مدينة مراغه، كان من أتباع الإمام جعفر الصادق عليه السلام ومن شيعته ومواليه المعتقد بإمامته. ولقد اقتبس نهج الإمام جعفر الصادق عليه السلام في التقصّي والتحقيق العلمي. وكان هو في الحقيقة من أسّس للنهضة الأوربيّة.

وقد وجد في عام ١٣٩٣ هجري– قبل ٤٤ سنة فقط أيْ حوالي عام ١٩٧٢– مخطوطات باللغة العربية في بولندا– مسقط رأس كوبرنيك – اتّضح منها بأنّ كوبرنيك كان ينقل من تلك المخطوطات العربيّة وينسبها إلى نفسه. والمخطوطات هذه ترجع إلى نصير الدين الطوسي وابن الشاطر الدمشقي.

وابن الشاطر الدمشقي أيضًا استعمل التقنية الرياضيّة الفلكيّة لـ نصير الدين الطوسي المسمّاة (أزواج الطوسي) أو (مزدوجة الطوسي)، وأيضًا نموذج (أوردي ليما) – من اختراعات تلميذ نصير الدين الطوسي – للتوصّل إلى نموذج مركزيّة الشمس.

نموذج (أوردي ليما) هو تقنية رياضية فلكية اخترعها مؤيد الدين الأوردي، الفلكي والرياضي والمعماري والمهندس، الذي كان يعمل في مرصد مراغه تحت إشراف نصير الدين الطوسي. ولد في طرابلس في سوريا، ثم سافر إلى مراغه وعمل في مرصد مراغه.

ومن المؤكّد أنّ موضوع الكتاب ليس نصير الدين الطوسي ولا كبلر ولا كوبرنيك ولا غاليليو ، بل موضوع الكتاب هو الإمام جعفر الصادق ﵇. وإنّما نذكر نصير الدين الطوسي بهذا التفصيل كي يتّضح للقارئ حماس تلامذة الإمام ﵇، على مدى التاريخ، في البحث والتحقيق العلميّ، كما كان نصير الدين الطوسي وجابر بن حيان (أبو الكيمياء)، كما يسمّيه الغرب.

كان نصير الدين الطوسي لا ينتمي إلى طائفة الإسماعيليّة – كما تصوّرها البعض لوجوده مع الإسماعيليين في قلعة الموت – بل كان يعتقد في مذهب الإثني عشريّة من البداية. اعتبره العالم والمؤرّخ ابن خلدون أحد أعظم علماء الفرس. في تلك الأيام كانت الطوائف تتعايش مع بعضها البعض في وئام، ولم تكن الطائفيّة موجودة كما هي الآن.

ومع الأسف الشديد، العالم يتقدّم ونحن نرجع القهقرى. فلم تكن هناك فروقات تذكر بين الإسماعيليّة والإثني عشريّة. بل إنّنا لا زلنا نعتبر العهد الفاطمي في مصر وشمال أفريقيا بالعهد الشيعي. فلقد تأسّست أوّل حسينيّة (مأتم الإمام الحسين ﵇) – كما نعرفها اليوم – في القاهرة – عاصمة الفاطميّين – قبل حوالي ١٠٠٠ سنة.

ثانيًا إن جميع الطوائف كانت تحضر محضر الإمام الصادق عليه السلام. وحتى أبو حنيفة حضر محضره الشريف لمدة سنتين، لقول أبي حنيفة المشهور: «لولا السنتان لهلك النعمان». وكان مؤسّس المذهب الجعفري الإمام الصادق عليه السلام يتمتّع بالتسامح الديني إلى أقصى حد، حتى أنّ عبّاد الأصنام كانوا يحضرون محضره الشريف كي يستفيدوا من مناهل علمه، كما أسلفنا في محاورة الإمام عليه السلام مع (أبو شاكر) الذي كان من عبّاد الأصنام.

وكان نصير الدين الطوسي مرجعًا شيعيًّا، وأحد تلامذته كان العلّامة الحلّي عليه الرحمة.

وأيضًا كتب نصير الدين الطوسي في الفقه، حيث ألّف كتاب (تجريد الكلام في تحرير عقائد الإسلام). ويتضمّن الكتاب بين فصوله الستّة إثبات وجود الله، وإثبات صفاته، وإثبات أفعاله، ثم إثبات نبوّة الأنبياء ومعصوميّتهم من الخطأ، وإثبات نبّوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ثم إثبات الإمامة ومعصوميّة الإمام صلى الله عليه وآله وسلم من الخطأ، وإثبات ولاية عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وإثبات المعاد، وإثبات وجود الجنة والنار، ولا زال هذا الكتاب يدرّس في المدارس الشيعيّة.

وقال علاء الدين القوشجي عن هذا الكتاب قائلًا:

إنّه تصنيف مخزون بالعجائب، وتأليف مشحون بالغرائب، فهو وإن كان صغير الحجم، وجيز النظم ، لكنه كثير العلم، عظيم الإسم، جليل البيان، رفيع المكان، حسن النظام، مقبول الأئمّة العظام، لم يظفر بمثله علماء الأعصار، ولم يأت بمثله الفضلاء في القرون والأدوار، مشتمل على إشارات إلى مطالب هي الأمّهات، مشحون بتنبيهات على مباحث هي المهمّات، مملوء بجواهر كلّها كالفصوص، ومحتوٍ على كلمات يجري أكثرها مجرى النصوص، متضمّن لبيانات معجزة، في عبارات موجزة.

ثم إن هذا الكتاب هو من المجموعة الجديدة التي بدأت بها باسم (المكتشفون العظام)، وقد أصدرت إلى الآن خمسة كتب من هذه المجموعة، ألا هي: كتاب أرسطو، وكتاب الإمام جعفر الصادق ﷺ، وكتاب الإمام علي ﷺ، وكتاب سقراط، وكتاب أفلاطون.

إلا أن بعض الناس لم يقرؤوا كل هذه الكتب، ولذلك يتساءلون ما هي مصادر الكتاب ؟ ولماذا كتبت هذه المجموعة ؟

لذلك اضطررت أن أكرّر في هذا الكتاب ملخّصًا لما ذكرت في مقدّمة كتاب أرسطو، كي يفهم الناس الظروف التي تحيط بمصادر الكتاب والغرض من كتابته.

إن الأنبياء لهم إطّلاع على المعاني السامية في هذا الوجود، والتي تغيب عن مستوى أفكار الناس، ولذلك يسمّونها "الغيبيّات". ولأن الأنبياء لا بدّ لهم من إقامة الجسور مع الناس في مختلف مستوياتهم الفكريّة، فلا مناص من أن يبيّنوا ويوضحوا المعاني السامية بالأمثال العينيّة التي يراها الناس في حياتهم اليومية.

فالله سبحانه وتعالى أورد كثيرًا من الأمثال في القرآن الكريم لتقريب المعاني السامية إلى أذهان البشر.

وأيضا لنبيّ الله عيسى ﷺ موعظة تسمّى موعظة الأمثال، غير الأمثال الكثيرة التي كان يضربها للناس، لتقريب المعاني إلى الأذهان.

فأنا أقتبس منه الآن (موعظة الأمثال) وذلك لمستوى الجمهور، وأيضًا (تفسير موعظة الأمثال) وذلك لمستوى الحواريّين.

- موعظة الأمثال:

عندما كان عيسى يمشي على ساحل بحر الجليل، وإذا بجمهور عظيم من الناس قد تجمّعوا على الساحل لسماع كلامه. فركب قاربًا صغيرًا وأرساه قرب الساحل، بحيث يستطيع الناس سماع كلامه. فاقتربوا جميعهم إلى البحر، وجلسوا على الساحل، ينتظرون كلامه.

فتكلّم عيسى قائلًا: ذهب مزارع لبذر البذار. وعندما كان ينثر البذور، سقطت بعضها على الطريق العام، فداستها أقدام المارّة، وأكلت منها الطيور. وسقطت بعضها على الأحجار، وعندما نبتت احترقت تحت الشمس، لفقدانها الرطوبة. وسقطت بعضها وسط سياج الأشواك، وعندما نمت خنقتها الأشواك. وسقطت بعضها على الأرض الخصبة، فأثمرت ثلاثين ضعفًا بل ستين ضعفًا بل مئة ضعف.

وقال عيسى ثانية: كان هناك أب طيّب، وربّ أسرة حنون، زرع بذورًا طيّبة في حقله. وكان يحرس الحقل عبيد مخلصون. وعندما ناموا تسلّل عدوّ الأب الطيّب، وألقى بذور العوسج والحنظل على البذور الطيّبة. وعندما نبت القمح، نبتت في وسط القمح، كمّيّات كبيرة جدًّا من العوسج والحنظل.

فأتى العبيد إلى الأب الطيّب وقالوا: يا مولانا أما زرعت بذورًا طيّبة في حقلك ؟ إذن من أين نبتت كمّيّات كبيرة جدًّا من العوسج والحنظل في وسط القمح ؟ فأجاب الأب الطيّب: أنا زرعت البذور الطيّبة، بيد أن الحرّاس ناموا، فتسلّل عدوّي إلى الحقل، وزرع بذور العوسج والحنظل على بذور القمح الطيّبة.

فقال العبيد: هل تسمح لنا أن نقتلع العوسج والحنظل من وسط القمح ؟

أجاب الأب الطيّب الحنون: لا تفعلوا ذلك، لئلّا يُقتلع القمح الطيّب سهوًا من غير عمد. ولكن انتظروا حتى وقت الحصاد، وعندئذ اسحبوا العوسج والحنظل من وسط القمح، وألقوها في النار حتى تحترق، واجعلوا غلال القمح الطيّب في صومعتي.

وتكلّم عيسى مرّة أخرى قائلًا: ذهب مزارعون كثر إلى السوق، لبيع محصولهم من التين. بيد أنهم حين وصلوا إلى السوق، وجدوا أن الناس يبحثون عن الأوراق الجميلة، بدل التين الطيّب. لذلك فإن المزارعين لم يتمكّنوا من بيع محصولهم من التين.

فقام أحد الأشرار وقال: لا جرم سأصبح غنيًّا. ثم دعا ولديه وقال لهما: انطلقا واجمعا كميات كبيرة جدًّا من الأوراق مع التين الفاسد. فباعوا بضاعتهم مقابل الذهب والفضة، لأن الناس انجذبوا بقوّة إلى الأوراق، وشروها فرحين. فأكل الناس التين الفاسد، ومرضوا بشكل فظيع.

وقال عيسى ثانية: كان هناك رجل يمتلك ينبوعًا من الماء، وكان يعطي الماء لجيرانه، كي يغسلوا ملابسهم الوسخة، بيد أن الرجل نفسه سمح لملابسه أن تبقى نتنة متعفّنة.

وتكلّم عيسى مرّة أخرى قائلًا: انطلق رجلان لبيع التفاح. وكان أحدهما يبيع قشور التفاح مقابل الذهب والفضة، وكان لا يعتني بجودة التفاح. بيد أن الثاني كان يريد بيع تفاحه في مقابل خبز يسير لقوت سفره. ولكن الناس كانوا يشترون قشور التفاح مقابل الذهب والفضة، ولا يعتنون بالرجل الثاني، بل كانوا يحتقرونه، على الرغم من أنه كان حاضرًا لبيع تفاحه الجيد برغبة واشتياق.

وهكذا تكلّم عيسى في ذلك اليوم إلى الجمهور بالأمثال. وبعدما صرف الناس وسرّحهم، ذهب في معيّة حواريّيه إلى نايين، البلدة التي أحيي فيها ابن الأرملة. وهنالك ضيّف الإبن وأمّه عيسى وخدماه.

- تفسير موعظة الأمثال:

اقترب الحواريّون من عيسى وسألوه: أيها المعلّم أخبرنا معاني الأمثال التي ضربتها للناس.

أجاب عيسى: إن ساعة صلاة المغرب قد اقتربت، فلذا سأخبركم معاني الأمثال بعد الصلاة.

وبعد الصلاة اقترب الحواريّون من عيسى فقال لهم: الرجل الذي ينثر البذور على الطريق العام وعلى الأحجار وعلى الأشواك وعلى الأرض الطيّبة، هو الذي يبلّغ كلام الله، الذي يسمعه عدد كبير من الناس.

إن كلام الله يقع على الطريق العام، عندما يسمعه البحّارون والتجّار، فينسونه بفعل الشيطان، بسبب رحلاتهم الطويلة، وتنوّع الأمم التي يتعاملون معها.

وإن كلام الله يقع على الأحجار، عندما يسمعها جلساء الأمراء، فلا يستوعبونها، بسبب قلقهم وانشغال بالهم الكبير بخدمة الأمراء. فهم رغم تذكّرهم لهذه المواعظ، إلّا أنهم ينسونها، فور تعرّضهم للمحن والبلايا والخطوب والشدائد، نظرًا إلى أنهم لا يراودهم الأمل في رحمة الله، لخدمتهم غير الله.

وإن كلام الله يقع وسط الأشواك، عندما يسمعها أولئك الذين يعيشون في بحبوحة من العيش، وعلى الرغم من أن كلام الله يؤثر فيهم ويجتذبهم، إلّا أن الشهوات

الجسدية، حينما تزداد، تخنق بذور كلام الله الطيبة، لأن التسلية الشهوانية تتسبّب لهم في نبذ كلام الله وراء ظهورهم.

وإن كلام الله يقع على الأرض الخصبة الطيّبة، عندما يسمعه أولئك الذين يخشون الله، فتنبت فيهم ثمرة الحياة الأبديّة. الحق أقول لكم: عندما يخشى الإنسان الله، فإن كلام الله في كل الأحوال يثمر فيه.

أما الأب الطيّب وربّ الأسرة الحنون، فهو الله حقًّا أبو المخلوقات، لأنه خلق المخلوقات جميعهم. ولكنه ليس أبًا بمعنى الأب في الطبيعة. فهو الله الملك الحقّ، يزرع بذر كلامه في حقل الجنس البشري. ولأن المعلّمين مهملون في تعليم كلام الله، بسبب انشغالهم بمشاغل الدنيا، فإن الشيطان يتسلّل إلى قلوب الناس، ويزرع الأخطاء المختلفة، التي منها ينشأ عدد لا يحصى من مذاهب العقيدة الفاسدة.

فالأنبياء والأوصياء والأئمة الطاهرون والعرفاء وأولياء الله الصالحون والقدّيسون يصرخون قائلين: يا رب ألم تعط الناس العقيدة الحقة ؟ إذن من أين أتى هذا العدد الذي لا يحصى من الأخطاء ؟

أجاب الله تعالى: لقد أعطيت الناس العقيدة الحقة، بيد أن الشيطان تسلّل خلسة إلى قلوبهم، وزرع الأخطاء، كي يبطل ناموسي وقانوني ويعدمه، بسبب انصياع الناس واستسلامهم للباطل والزهو والعُجْب والغرور والخيلاء.

وقال القدّيسون: يا رب اسمح لنا أن نقشع هذه الأخطاء ونبدّدها، بإهلاك الناس وإفنائهم.

أجاب الله: لا تفعلوا ذلك، لأن المؤمنين لهم صلة القرابة الوطيدة مع الكافرين، بحيث أن المؤمنين سيفنون، إذا أبيد الكافرون وأهلكوا. ولكن انتظروا إلى يوم القيامة،

حينما يجمع ملائكتي الكافرين، ويلقون بهم وبالشيطان في نار الجحيم. في حين أن المؤمنين الصادقين سوف يأتون إلى ملكوتي.

ومن المؤكّد أن الكثيرين من الكافرين سيلدون الأبناء المؤمنين، ولأجلهم ينتظر الله، كي يتوب المخطئون ويندموا على آثامهم.

أما أولئك الذين يبيعون محصولهم من التين الطيّب، فهم المعلّمون الصادقون، الذين يعظون العقيدة الحقة، بيد أن أهل الدنيا الذين تسرّهم الأكاذيب، ينشدون أوراق الكلمات الجميلة، وكلام المداهنة والتمليق والنفاق والمدح والإطراء من معلّميهم.

ونظرًا إلى ذلك، يقوم الشيطان بمعيّة ولديه الجسد والحواسّ، ويأتي بكميات كبيرة من الأوراق، أي كميات من متاع الدنيا وزينتها وزبرجها، كي يغطّوا بها آثامهم، وبذلك يمرض الإنسان، ويستعدّ للهلاك الخالد، وللنار التي هم فيها خالدون.

أما الرجل الذي يمتلك ينبوعًا من الماء، ويهب الماء لجيرانه، كي يغسلوا ملابسهم الوسخة، بيد أنه يسمح لملابسه أن تبقى نتنة متعفّنة، فهو المعلّم الذي يعلّم الآخرين التوبة والندامة، بيد أنه نفسه لا يزال باقيًا على الذنوب والمعاصي والآثام، ولا يتوب عنها ولا يندم عليها.

ما أشقى مثل هذا الإنسان ! يعلن بلسانه عقابه المناسب له، قبل أن تعلنه الملائكة !

ماذا لو وجد مخلوق على هذه البسيطة يكون عنده لسان فيل، بيد أن بقيّة جسده بحجم النمل، أما يكون مثل هذا المخلوق وحشًا غريب الخلقة ! بلى بالتأكيد. الحق أقول لكم: إن الذي يعظ الآخرين التوبة والندامة، في حين أنه بنفسه لا يندم على آثامه ولا يتوب عنها ولا ينيب، لأشنع وأمسخ وأفظع وأغرب خلقة من ذلك المخلوق.

أما الرجلان اللذان يبيعان التفاح: فالواحد منهما يعظ حبًّا في الله، ولا يداهن ولا ينافق ولا يتملّق، بل يعلّم التعاليم الإلهية بصدق وإخلاص، ولا يبتغي إلّا الكفاف من الرزق ومعيشة الرجل الفقير. بحق الحيّ الذي لا يموت والذي نفسي بيده، إن مثل هذا الرجل لا يعبؤ به أهل الدنيا، بل على العكس يحتقرونه ويستخفّون به.

أما الرجل الثاني الذي يبيع قشور التفاح مقابل الذهب والفضة، ويرمي بلباب التفاح بعيدًا، فهو الذي يعظ الناس، كي يسرّهم ويفرحهم، بدل أن ينبّههم من سباتهم باللوم والتوبيخ والتعنيف. وبنفاقه ومداهنته وتملّقه هذا، يدمّر ويفسد روح مستمعيه، الذين يتبعونه ويحتذون به، ويستسيغون مداهنته وتمليقه ونفاقه. يا ترى كم من الناس هلكوا لهذا السبب[1]!

ولا يخفى عليك ما لنبيّ الله إدريس عليه السلام من أمثال، أوردتها في كتابي (أسرار النفس البشريّة) بكلّ أجزائها. ففي فجر عهد الإنسان المتحضّر في زمن إدريس، في عهد ما قبل طوفان نوح، كانت الاصطلاحات اللغوية لا زالت قليلة، فما أكثر ما عبّر نبيّ الله إدريس هذه المعاني السامية بأمثال عينيّة !

كانت الحياة في زمان الأنبياء بسيطة جدًّا، وكان لا بد للأنبياء من ضرب الأمثال من الحياة البسيطة التي كان الناس يعيشون فيها.

إلّا أن هناك تطوّرات كبيرة حدثت في الحياة البشرية منذ ذلك الحين. فمن ناحية أن رسالات الأنبياء لم تتوقف، وهذه الرسالات مستمرّة في العرفاء لكي يبيّنوها ويوضحوها للناس، ومن ناحية أخرى تطوّرت الحضارات البشرية بتطوّر العلوم الطبيعية، وعلى الأخصّ منذ القرن السابع عشر، حيث بدأ التطوّر العظيم في علوم

---

(1): من كتابي هكذا تكلم عيسى عليه السلام.

الفلك، من كوبرنيك إلى غاليليو إلى كبلر وإلى نيوتن، ثم بدأ التطوّر في علوم الفيزياء والكيمياء منذ القرن الثامن عشر.

ثم انقلبت حياة البشر الحضارية رأسًا على عقب بظهور التلغراف والكهرباء والمصباح المتوهّج والتليفون والتسجيلات الصوتية والسينما والراديو والتلفزيون وغيرها.

وأصبح الإنسان يعيش في مستوى آخر من الحضارة تختلف جذريًّا عن الحضارات التي سبقتها، فأصبح النور يعمّ المنازل والمدن على الكرة الأرضية، وتوسّعت الاتّصالات بدءًا من التلغراف والتليفون إلى الأقمار الصناعية في الوقت الحاضر.

وبدأت الحياة المنزليّة تتغيّر بدءًا من عهد الراديو والتلفزيون إلى الإنترنت المتاح في الوقت الحاضر، وتغيّر نمط الحياة البشرية رأسًا على عقب.

وفي خضمّ هذه التطوّرات في الحضارة البشريّة تزايدت مجالات الأمثال لتوضيح المعاني السامية التي يعيشها الأنبياء والعرفاء. فصرنا بحاجة إلى موسوعة معارف للعلوم الطبيعية، وإلى سيرة المكتشفين العظام ومنجزاتهم، التي أسهمت في بناء هذه الحضارة الجديدة، حتى يكون مرجعًا مناسبًا لتوضيح المعاني الإلهيّة السامية.

فبدأت في هذا المشروع لتسهيل عمل العرفاء والأولياء لتوضيح هذه المعاني السامية، حتى يبقى الجسر قائمًا بينهم وبين المستويات الفكرية المختلفة عند البشر.

ومن بين عمالقة المساهمين الكبار الكثر في هذه الحضارة الجديدة، انتخبت المكتشفين العظام التالية أسماؤهم، حسب التسلسل التاريخي: سقراط وأفلاطون وأرسطو والإمام علي عليه السلام والإمام جعفر الصادق عليه السلام ونصير الدين الطوسي وابن الشاطر وكوبرنيك وكبلر وغاليليو وهيوجنس وابن النفيس وويليام هارفي ونيوتن ولافوزيه وجيمس واط

وفاراداي وتيموني وباستور وماكسويل واديسون ورونتغن وبكريل ومدام كوري وهنري بوانكاريه وآينشتاين ورذرفورد والأخوان رايت وماركوني وبيرد.

وسوف أخصّص كتابًا لكلّ واحد من هذه الأسماء الكبار، والذين ينتمون إلى مجموعة المكتشفين العظام، حيث استقيت المعلومات من كتبي: أسرار النفس البشريّة، وهكذا تكلّم عيسى عليه السلام، ووحدة الإرادة في الوجود، وهكذا تكلّم الإمام جعفر الصادق عليه السلام، والقوى الكونيّة، وأيضًا مصادر الإنترنت المتاحة.

تنبؤات القرآن الكريم
عن الحقائق الكونية العظمى

لقد ثبت في علوم الفلك والفضاء في أواخر القرن العشرين وأوائل العقد الأول من القرن الواحد والعشرين حقيقتان علميتان عجيبتان ومسلّمتان، هما وجود (المادة الداكنة) و (الطاقة الداكنة)، وهما معًا يكوّنان ٩٦ بالمائة من الكون. والأربع بالمائة فقط من حصّة المادة العادية يتكوّن منها الكون العظيم الذي نراه بأعيننا ـ وهو القليل جدًّا جدًّا ـ والغالبية العظمى من هذه المادة العادية نراها بطريقة مباشرة أو غير مباشرة بالأجهزة العلمية المتطوّرة.

أما المباشرة فهي الصور الفوتوغرافية العجيبة الغريبة التي زوّدنا بها المختبر الفضائي (هابل) في العقدين الأخيرين، ولا زال يزوّدنا بها وتفيض علينا اكتشافاته تترى، وسيزوّدنا بها المختبر الفضائي الثاني (جيمس وات) والذي سيطلق إلى الفضاء الخارجي في عام ٢٠١٣.

أما ما نراه بطريقة غير مباشرة فهي الصور بأمواج ما دون الحمراء التي تزوّدنا بها كاشفات أمواج ما دون الحمراء التي ثبّتت على التلسكوبات الأرضية والفضائية، والصور بالأشعة السينية وأشعّة جاما التي تزوّدنا بها مختبرات فضائية من أمثال (جاندرا) و (اكس ام ام نيوتن) وغيرها.

هذا الكون العظيم الذي نراه الآن بالطرق التي ذكرنا هو فقط ٤ بالمائة من إجمالي الكون الذي يطمح الإنسان إلى دراسة ماهيته بإرسال المختبرات الفضائية وإرسال الروبوتات وتحليل العناصر الموجودة وأخذ بعض الصور وغيره. أما ٩٦ بالمائة من الكون فهو غير مرئي، إلا أنه كان لا مناص للعلم من افتراضهما لتفسير الظواهر التي يراها في

الكون، والتي لا تستقيم إلا بهما. وقد سمّاهما العلماء بـ (الداكنة) لاستحالة رؤيتهما، لأن (المادة الداكنة) لا تشعّ طاقة الضوء البتة، و(الطاقة الداكنة) هي قوّة كقوّة الجاذبية لا يمكن رؤيتها.

إلا أن القرآن الكريم قد ذكرهما قبل ١٤٠٠ سنة في آيتين من سورة التكوير[٢] هما:﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ۝ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ﴾. وأنا أعتقد أن الخُنَّس هي (المواد الدكن) وهي حقيقة عظيمة في الكون أقسم الله بها. وقد كان المفسّرون يعتقدون بأنها الكواكب كلها أو السيارة منها أو النجوم الخمسة زحل والمشتري والمريخ والزهرة وعطارد، أو كما فسّرها البيضاوي بالكواكب الرواجع، من خنّس إذا تأخّر وتنحّى وانقبض وتغيّب. وخنس الشيء عنك أي ستره. وخنس بفلان غاب به وتخنّس بفلان تغيّب ـ كما في قاموس محيط المحيط.

وهي تنطبق على (المادة الداكنة) أكثر منها على الكواكب والنجوم. إلا أن المفسّرين لم يكونوا يعلمون شيئًا عن هذه الحقيقة الكبرى التي ثبتت في أواخر القرن العشرين. إنهم كانوا يعتمدون على العين المجرّدة في رؤية النجوم والكواكب، فقد كان معظمها تغيب عنهم ولذلك اعتبروها خنّسًا. إلا أنها ليست خنّسًا أمام التطوّرات العلمية الهائلة والأجهزة الجبّارة والمختبرات الفضائية التي تراقبها وترصدها في أيامنا هذه. فإذا كان القرآن لكل زمان ومكان، فالأجدر بنا أن نضع النقاط على الحروف ونفسّر الخنّس بالتي تغيب عنا حقيقة، لا عن العين المجرّدة فحسب بل أيضًا عن الأجهزة التي توصّل إليها الإنسان في عصرنا هذا.

[٢]: [التكوير: ١٥ – ١٦].

وسبب تغيّبها عن الأجهزة المتطوّرة هو أنها لا تشعّ أبدًا، بمعنى أنها لا تصدر أيّ إشعاع، أو لا تصدر أيّة طاقة ضوء، والتي تسمّى "الإشعاع الكهرومغناطيسي"، والتي تتفاعل مع الأجهزة، وكلّما تعقّدت الأجهزة زاد تفاعلها معها.

والأجهزة إنما وظيفتها هي تلقّي الإشعاع أو طاقة ضوء من جسم ما. فهي غائبة عن الأجهزة المتطوّرة دائمًا أبدًا دأبًا سرمدًا.

وقد عبّر القرآن الكريم عن (الطاقة الداكنة) بالجوار الكنّس. وهي القوّة التي تجري في الكون كجريان النهر السريع الجارف. وكما في قاموس محيط المحيط فإن الجوار الكنّس هي الخنّس، لأنها تكنس (أي تتغيّب) في المغيب كالظباء في الكنّس. وقد فسّرها المفسّرون بكل النجوم، لأنها تبدو ليلًا وتخفى نهارًا أو الملائكة. وهي تنطبق على (الطاقة الداكنة) أكثر منها على النجوم والملائكة. إلا أن المفسّرين لم يكونوا يعلمون شيئًا عن هذه الحقيقة العظمى التي ثبتت في أوائل العقد الأول من القرن الواحد والعشرين.

ثم إن الكواكب والنجوم لا تغيب عن أعين البشر كما كان يتصوّر. صحيح أنها تغيب عن العين المجرّدة، ولكنها لا تتغيّب عن الأجهزة المتطوّرة الفعلية في الفضاء الخارجي، أو تلك التي بإمكان العلماء اختراعها في بحثهم الدؤوب عنها، لأنها تتكوّن من المادة العادية التي تشعّ طاقة الضوء، والتي تسمّى "الإشعاع الكهرومغناطيسي"، وهي تتفاعل مع الأجهزة، وكلما تعقّدت الأجهزة زاد تفاعلها معها.

بعض هذه الأشياء تلتقط بالعين البشرية ولكنها نوع واحد من طاقة الضوء. إن الإشعاع الكهرومغناطيسي موجود بشكل أنواع من طول الموجة: الأطول فيها هي موجات الراديو ثم أشعّة ما دون الحمراء (من واحد إلى مئة ميكرون) ثم العين المجرّدة (وهي من

٤٠٠ إلى ٧٠٠ نانومتر) ثم أشعّة ما فوق البنفسجية ثم الأشعة السينيّة ثم إشعاعات جاما وهي الأقصر في طول الموجة ولكنها أكثر الموجات طاقة.

أما (المادة الداكنة) فهي لا تشعّ طاقة كافية لتمكين المرء من رؤيتها بالطريقة المباشرة، لا بالعين البشرية ولا بالأجهزة المتطوّرة. ولكن العلماء يلاحظون وجودها بطريقة غير مباشرة. أو بمعنى آخر فإن هذه المادة لا تتفاعل مع الأجهزة، إلا القليل القليل منها، فلذا فهي لا تلتقط بالأجهزة مهما زاد تطوّرها وتعقيدها.

والأهمّ من هذا كله أن هذه الحقائق العظمى جاءت في سياق سورة تتكلّم عن تكوير الشمس، وانكدار النجوم، وتسجير البحار، ونشر الصحف، وكشط السماء، وتسعير الجحيم وغيرها من الأحداث الكونية الجسام. وتتكلم عن رؤيته بالأفق المبين، بواسطة الصادق الأمين، وما هو على الغيب بضنين، بنبوءاته عن أحداث الكون العظيم، وإنه لقرآن كريم، في كتاب مكنون، قد كنّ فيه ما كان وما يكون، إلى يوم الحشر المبين.

وليس ببعيد أن الكنّس تعطي المعنى الثاني أيضًا بالإضافة إلى المعنى الأول. فهذه الجواري أو القوى تكنس الكون كنسًا وتباعد بين مجرّاته الضخمة البعيدة عنّا جدًّا، في ظاهرة تسمّى (التوسّع الكوني)، لا بسرعة ثابتة، بل بتسارع تتزايد فيه السرعة لحظة بعد لحظة، والتي تؤدّي مآلًا إلى نهاية هذا العالم، كما تصوّر السورة أحداثها الجسيمة.

وفي نظري إنها ستكون نهاية هذا العالم فقط، وسيعاد عالم آخر، فإنه يبدأ الخلق ثم يعيده، كما ذكر القرآن ذلك قبل ١٤٠٠ سنة. أما (توسّع الكون) فقد سبقهم القرآن الكريم أيضًا في سورة الذاريات في قوله تعالى(٣): ﴿وَالسَّمَاء بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾.

(٣): [الذاريات : ٤٧].

والواضح أن (لام) التأكيد يضيف إلى (توسّع الكون) معنى آخر وهو التسارع الهائل في توسّع الكون الذي اكتشف حديثًا.

أليس الأحرى بنا أن نخاطب العالم المتطوّر الذي وصل إلى نظرية الانفجار الكبير، ونظرية الجاذبية، ونظرية النسبية، ونظرية التوسّع الكوني، ونظرية (المادة الداكنة)، وأخيرًا وليس آخرًا نظرية (الطاقة الداكنة)، وتوصّل إلى صور فوتوغرافية ملوّنة لأجسام ضخمة جدًّا، وهي المجرّات على بعد ١٢ مليار سنة ضوئية ؟

فإلى متى يكون خطابنا إلى العوالم الميّتة في الماضي، في حين أن قرآننا حيّ يخاطب هذا العالم المتطوّر والذي وصل إلى ما وصل إليه ؟

ألا تعرف أن القرآن هو لكل زمان ومكان ؟ وأين نحن من هذه الحقائق الكونية العظمى وهي (المواد الدكن) و(القوى الدكن)، التي توصّل إليها العالم اليوم ؟ وقد سبقهم القرآن الكريم بـ ١٤٠٠ سنة.

فقد سبقهم الإمام علي عليه السلام (تلميذ محمد صلّى الله عليه وآله وسلّم، بل عبد من عبيده) في كشف الانفجار الكبير، والسقف السائر، والذي يعبّر عن تخوم الكون التي تتوسّع دائمًا ولا تبقى ثابتة، والرقيم المائر، الذي هو (النسيج الزماني المكاني المتموّج) – أو ما يسمّونه النسيج الزمكاني – وتموّجه هذا يبرز بأشكال "الجاذبية". وهو القماش الذي ذكره آينشتاين في نظريته النسبية الخاصّة، حيث أضاف بعد الزمان إلى الأبعاد الهندسيّة الثلاثة، وسمّاها النسيج أو القماش، وربط نظرية الجاذبية بهذا النسيج. مع الفارق الكبير بأن الإمام قال ذلك قبل حوالي ١٤٠٠ سنة. في حين أن آينشتاين قال هذا قبل حوالي مائة عام فقط.

وذكر الإمام علي ﷷ أيضًا نشوء المرحلة الأولى من الكون وهي مرحلة السائل المطلق. فهو يعبّر عنها بالماء، في حين أن العلم يعبّر عنها بالسائل المطلق، أي السائل الذي لا لزوجة فيه إطلاقًا، وهو الماء فعلًا. ويذكر العلم أن هذه المرحلة من نشوء الكون دامت ثلاثمائة ألف سنة بعد الانفجار الكبير. ويذكر الإمام وقوع الماء في حدود معيّنة لا يتجاوزها، في حين أن العلم يذكرها بشكلها البيضاويّ، وهي أيضًا حدود معيّنة لا يتجاوزها الماء.

ويعبّر الإمام ﷷ عن الانفجار الكبير بقوله «ثُمَّ أَنْشَأَ سُبْحَانَهُ فَتْقَ الْأَجْوَاءِ وَشَقَّ الْأَرْجَاءِ». وأضاف إليه أيضًا إيجاد الفضاء أو المكان بقوله «وَسَكَائِكَ الْهَوَاءِ». وأكّد على دوران الفلك، وأن السموات والمجرّات وكل شيء في هذا الكون العجيب في حالة دوران بقوله: «فِي فَلَكٍ دَائِرٍ ». كما ذكر القرآن الكريم في قوله تعالى في سورة يس[٤]: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾.

إن الإمام عليًّا ﷷ ذكر ثلاث خاصيّات للكون قبل ١٤٠٠ سنة وهي قوله: «فِي فَلَكٍ دَائِرٍ وَسَقْفٍ سَائِرٍ وَرَقِيمٍ مَائِرٍ». كانت خاصيّة الفلك الدائر معروفة وملحوظة من قديم الزمان، إلا أن الأرض كانت مستثناة من هذه الخاصيّة ـ حسب رأي الأكثرية من العلماء الأقدمين. وإن سقف الكون ليس ثابتًا بل هو سائر. وهذا ما اكتشفه هابل في العشرينات من القرن العشرين، وأكمله علماء ناسا في عام ١٩٩٧ حيث قالوا بتسارع التوسّع هذا. وإن الرقيم المائر اكتشفه آينشتاين نظريًّا في أوائل القرن العشرين، ولكن علماء ناسا منهمكون الآن لرؤيتها على أرض الواقع.

---

[٤]: [يس : ٤٠].

ثم ذكر الإمام عليه السلام كل هذا بلغة عربية سلسة فصيحة بليغة لا يبلغ مداها إلا القرآن الكريم وأستاذه الأعظم محمد صلى الله عليه وآله، ولا يتذوّقها إلا العالمون الضالعون في اللغة العربية، كما في قوله عليه السلام:-

«ثُمَّ أَنْشَأَ سُبْحَانَهُ فَتْقَ الْأَجْوَاءِ وَشَقَّ الْأَرْجَاءِ وَسَكَائِكَ الْهَوَاءِ فَأَجْرَى فِيهَا مَاءً مُتَلَاطِماً تَيَّارُهُ مُتَرَاكِماً زَخَّارُهُ حَمَلَهُ عَلَى مَتْنِ الرِّيحِ الْعَاصِفَةِ وَالزَّعْزَعِ الْقَاصِفَةِ فَأَمَرَهَا بِرَدِّهِ وَسَلَّطَهَا عَلَى شَدِّهِ وَقَرَنَهَا إِلَى حَدِّهِ الْهَوَاءُ مِنْ تَحْتِهَا فَتِيقٌ وَالْمَاءُ مِنْ فَوْقِهَا دَفِيقٌ ثُمَّ أَنْشَأَ سُبْحَانَهُ رِيحاً اعْتَقَمَ مَهَبَّهَا وَأَدَامَ مُرَبَّهَا وَأَعْصَفَ مَجْرَاهَا وَأَبْعَدَ مَنْشَأَهَا فَأَمَرَهَا بِتَصْفِيقِ الْمَاءِ الزَّخَّارِ وَإِثَارَةِ مَوْجِ الْبِحَارِ فَمَخَضَتْهُ مَخْضَ السِّقَاءِ وَعَصَفَتْ بِهِ عَصْفَهَا بِالْفَضَاءِ تَرُدُّ أَوَّلَهُ إِلَى آخِرِهِ وَسَاجِيَهُ إِلَى مَائِرِهِ حَتَّى عَبَّ عُبَابُهُ وَرَمَى بِالزَّبَدِ رُكَامُهُ فَرَفَعَهُ فِي هَوَاءٍ مُنْفَتِقٍ وَجَوٍّ مُنْفَهِقٍ فَسَوَّى مِنْهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ جَعَلَ سُفْلَاهُنَّ مَوْجاً مَكْفُوفاً وَعُلْيَاهُنَّ سَقْفاً مَحْفُوظاً وَسَمْكاً مَرْفُوعاً بِغَيْرِ عَمَدٍ يَدْعَمُهَا وَلَا دِسَارٍ يَنْظِمُهَا ثُمَّ زَيَّنَهَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ وَضِيَاءِ الثَّوَاقِبِ وَأَجْرَى فِيهَا سِرَاجاً مُسْتَطِيراً وَقَمَراً مُنِيراً فِي فَلَكٍ دَائِرٍ وَسَقْفٍ سَائِرٍ وَرَقِيمٍ مَائِرٍ».

والأهمّ من ذلك أن القرآن الكريم ذكر تفاصيل عن نظريّة النسبية، والتي إذا أدخلتها في معادلات النسبيّة، تأتينا بنفس النتائج التي توصّل إليها آينشتاين، مع الفارق الكبير بأن هذه الحقائق العظمى ذكرها القرآن الكريم قبل ١٤٠٠ سنة.

إذا كان هذا يبدو عجيبًا للإنسان الغربيّ ومن تبعهم وانبهر بهم، فما بالك بأن أقوامنا في العراق هم أول من اخترع الكتابة والرياضيات والجبر والمثلثات وعلم الهيئة وعلم النجوم وغيرها ؟ فمتى نتخلّص من هذه العقد أمام الغرب ؟ وهذه العقد ابتليت بها الطبقات المثقفة منا، والتي وضعنا فيهم أملنا بذكر هذه الحقائق الكبرى التي

سبقناهم بها قبل ١٤٠٠ سنة. ولكنهم مع الأسف الشديد انبهروا بالثقافة الغربية، ونسوا إصالتهم الشرقية، وألصقوا بالغرب حسناتنا وسلبونا إياها.

ولا زال الكثيرون منا يصرّون على الأفكار المتحجّرة وينسبونها إلى القرآن العظيم ثم يقولون بأفواههم بأن القرآن نزل لكل زمان ومكان ـ وما أكبر الفارق بين العمل والكلام !!!

وقد ذكر الإمام زين العابدين عليه السلام بأن سورة التوحيد مثلًا تتضمّن أسرارًا جسامًا سيتوصّل إليها البشر في مستقبل الأيام. فما أكثر هؤلاء الذين نبذوا القرآن الكريم وراء ظهورهم، وجعلوه متحجّرًا، لا لشيء إلا لأنهم أنفسهم متحجّرون !

وقد ذكر الإمام الصادق عليه السلام في مناظرته مع جابر بن حيان بأن الأدوات التي خُلق بها الكون سيتوصّل إليها البشر في مستقبل الأيام. يقول عليه السلام: "إن عقلنا وحواسنا ناقصة لدرك الأدوات التي بها خُلق العالم (أو الحياة). ولكننا نرى بأعيننا المواد التي خُلق منها العالم. ولدرك الأدوات التي بها خُلق العالم (أو الحياة) يجب أن يكون عقلنا أقوى ممّا هو الآن، وحواسنا غير الحواس التي عندنا الآن.

وفي مكان آخر قال عليه السلام بالحرف الواحد أيضًا مجيبًا على سؤال جابر : –

"هل يأتي يوم نُدرك فيه الأدوات التي خُلق بها العالم (أو الحياة) ؟

فقال عليه السلام: نعم يا جابر ! إن العلم يمرّ بفترات ركود ونهضة كما أثبت لنا التاريخ ذلك. ويمكن أن تأتي فترات حركة ونهضة علميّة في المستقبل، يدرك فيها البشر الأدوات التي خُلق بها العالم (أو الحياة).

إن أئمتنا عليهم السلام يحوّلوننا إلى المستقبل عن علم ودراية، ونحن نقرأ القرآن بعيون موتى، وما قاله الأسلاف في الماضي السحيق، متجاهلين ما توصّل إليه البشر اليوم من اكتشافات لم يسبق للتاريخ مثلها ولم يوجد لها نظير. ثم نقول ـ بلقلقة اللسان طبعًا ـ بأن القرآن خُلق لكل زمان ومكان.

يقول إمامنا الصادق عليه السلام: إن في مستقبل الأيام يكون عقلنا أقوى ممّا هو الآن، وحواسنا غير الحواس التي عندنا الآن. ويقول الإمام زين العابدين عليه السلام: «إن أسرار القرآن سيدركها رجال الغد».

ثم إذا نحن ذكرنا الحقائق العظمى من القرآن تعجّبوا ووضعوا أصابعهم في أفواههم ! كأننا جئنا بهذه الحقائق من المريخ ! وكما قال الشيخ محمد عبدو، بعد رجوعه من فرنسا، بأنه في الغرب يوجد الإسلام ولا يوجد مسلمون، بيد أنه في الشرق يوجد مسلمون ولا يوجد الإسلام.

وأوضح دليل على ذلك هو أنه عندما يعتنق الفلاسفة والمفكّرون الغربيّون الإسلام، يركّزون في إيمانهم على لبّ الحقائق في الدين الإسلامي كالصلاة والتأملات ـ أو الجذبات الروحيّة أو ما نسمّيه بحضور القلب أو المعراج في الصلاة ـ وعلى الفهم العرفاني للدين الإسلامي، لا الفهم التقليدي الضحل، في حين أن هذه الحقائق هي محلّ استهتار المسلمين عندنا.

فمثلًا المفكّر الفرنسي الدكتور ميشيل بيرترون الذي اعتنق الإسلام حديثًا يشرح لنا سبب اعتناقه الإسلام وعزوبه عن الدين المسيجي قائلًا: -

"إن المشكلة في الديانة المسيحية تكمن في إمكانية الجمع بين عبادة الله والتأمّل وبين الحياة اليومية التي ينبغي أن نمارسها في هذا العالم. يعني من الطبيعي أن يتزوّج

الإنسان وينجب أطفالًا ويكوّن أسرة، ويمارس مسؤوليّاته الاجتماعيّة. وهكذا فإنه لا يستطيع أن يحيا حياة التأمّل لأن عليه الانخراط في هذه الحياة الدنيوية. وبالتالي يوجد فرق كبير بين الذين يكرّسون أنفسهم للحياة الدينية وبين الذين يحيون الحياة اليومية العملية. وهذا ما أزعجني وسبّب لي مشكلات ومصاعب."

ويحدّثنا عن الصلاة في الإسلام قائلًا: -

"أكثر ما استوقفني هو القوّة الهائلة التي لمستها في الصلاة. الصلاة قوّة عظيمة في الإسلام ... تنبع قوّة الصلاة الإسلامية بداية من استخدامها لغة مقدّسة (العربية)، والتي هي لغة الوحي الإلهي، وهو ما أثر فيّ كثيرًا. ويمكنني القول إن هذا أثر فيّ حتى من الناحية الجسدية. حين يحين موعد الصلاة أشعر وكأن شيئًا روحيًّا ينزل في ذاتي مثل نداء عميق يناديني إلى الصلاة. لا أشعر أبدًا أنه شيء إلزاميّ يفرض عليّ، بل أحسّه واجبًا وخضوعًا لله عزّ وجل وفعلًا إراديًّا من الطاعة لله، وليس أبدًا كفرض يُفرض عليك من الخارج. وهنا تكمن قوّة الصلاة وروحانيّتها ...

لعلّ أهمّ ما أدركته وتوصّلت إليه من خلال تجربتي في الإسلام واعتناقي له هذا اليقين بأنني على الحقّ، وبالتالي فإن قراءتي لحياتي اختلفت على نور هذه الحقيقة. عدت لأقرأ حياتي بطريقة مختلفة، وكل ما كان يبدو لي سابقًا في الإسلام كالتزامات مفروضة يرى أنه من الصعب ممارستها، أصبح كل ذلك فجأة كضرورة حتميّة لمن يطيع الله ولمن يحبّ الله ولمن أراد أن يكون عبدا لله من خلال الوحي الإلهي الذي أوحاه لنبيه محمد ﷺ.

وأستطيع القول أن المسيحيين الحقيقيين الآن هم المسلمون، بما أنهم يطبّقون ما طلبه السيّد المسيح عليه السلام منا من التعاضد والأخوة الواحد للآخر ... وبشكل عام لقد غيّر

الإسلام كل شيء في حياتي. فالذي كنت أنظر إليه بعين الشك أصبح هو اليقين وأعدت حياتي على نور هذا اليقين. والجدير بالذكر أن كل ما كان وحيًا من القرآن بدا لي كحقيقة كنت سابقًا أطرح حولها العديد من الأسئلة ...

لقد كنت مدفوعًا بقوّة مجهولة. أستطيع أن أقول في ذلك الوقت، كانت تدفعني نحو أماكن تجذبني إليها بقوّة، وبالأخصّ المكان الأخير الذي زرته: وهو مسجد الشيخ محيي الدين بن عربي حيث يوجد قبره (رحمه الله) ...

لقد قرأت مؤلّفات للشيخ محيي الدين بن عربي وبالأخصّ كتبًا مترجمة على يد رجال مسلمين، وبالأخصّ السيد ميشيل شوتكوفيكس، ولمؤلّفين آخرين هم مترجمون بارعون ولهم معرفة جيدة بالإسلام. ولقد وجدت في كتب الشيخ بن عربي قيمًا ومعاني عظيمة وقوّة كبيرة من الطاقات الروحية، وقوة إقناع هائلة، وإيمانًا عميقًا وخضوعًا لله وشواهد على صدقه.

أما عن شعوري، ما أن وصلت إلى المسجد حتى حاولت أن أصلّي بالقرب من القبر، وبقيت حوالي نصف ساعة أتفكّر بالله طالبًا منه أن يساعدني دون أن أعلم كيف، لكنني طلبت منه المعونة والمعرفة ثم دخلت في الغرفة التي فيها قبره.

وأشير إلى أنني قمت بزيارة قبر الشيخ ابن عربي لأنه كان عندي إعجاب كبير له. وكنت أريد أن أعبّر عن تقديري وإجلالي لهذا المعلّم الروحيّ على الرغم من عدم معرفتي على ماذا ستنطوي الزيارة، وإنما اعتقدت أنها الطريقة التي أعبّر له فيها عن امتناني على أعماله التي أحببتها كثيرًا ...

كخاتمة أقول: اتّجهوا إلى الله، ابحثوا عنه بقلب صادق وسليم، حتى لو كنتم في اليأس، حتى لو كنتم في الشك، وحتى لو كنتم تغرقون في الاضطراب والقلق. فإن الله

سوف يتّجه نحوكم بوجهه وسيغيّر قلوبكم بحيث يجعل منكم متنعّمين بالسعادة والسلام مثلي منذ أن أصبحت مسلمًا."

ومثلًا هناك فيلسوف فرنسي هو روجيه جارودي يلتحق بموكب المصلحين العظام من أمثال محمد إقبال لاهوري وأكبر الكبير ـ إمبراطور الهند ـ وابن عربي والبيروني وغيرهم، ويدعو إلى التجديد في إسلام اليوم. وكأن إسلام اليوم يختلف عن إسلام محمد ﷺ وآله الطاهرين !

يقول الله عز وجل[٥]: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىَ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللّهُ الشَّاكِرِينَ﴾. وما أعرف كم عدد الشاكرين اليوم، ولكن الله سبحانه وتعالى قال عزّ من قائل[٦]: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾.

فانظر ماذا يقول روجيه جارودي الذي ألّف كتابًا بعنوان "الإسلام دين المستقبل": –

"بالطبع أنا اليوم أكثر إيمانًا بكل ما قلته وما كتبته، وأصرّ على أنه يجب على المسلمين كافة أن يكافحوا ويناضلوا بصلابة وقوّة ومعرفة ووعي من أجل الوصول إلى تطبيق عميق وهادف للمبادئ الإسلامية. أنا لا أملك الإيمان في جيبي ولا أضعه في منديلي. إنه عمليّة تفاعل ومثابرة. ويجب على المرء ألا يدّعي الوصول إلى نهاية الطريق. عليه أن يسعى يوميًّا للوصول إلى الكمال فالأكمل، إلى الحدّ الذي تستطيع فيه أن تأتي بحضارة إسلامية عالمية إن شاء الله أو حضارة عالمية قائمة على الإسلام ...

---

[٥]: [آل عمران : ١٤٤].

[٦]: [سبأ : ١٣].

إن مشكلة مستقبل الإسلام تكمن في كلمات بسيطة. فإما أن يدخل إلى المستقبل رجوعًا إلى الوراء، بأعين مثبتة على الماضي، معتمدًا على تشدّقات المفسّرين بشأن المشكلات القانونية والفقهية التي كانت تطرح على عهد الأمويين والعباسيين، وإما أن يثبت قدرته على حلّ مشكلة نموذج جديد في النموّ، وأن يستأنف طيرانه المنتصر كما جرى في العهود التي قدّم فيها الحلول في القرن الأول الهجري والمشكلات المطروحة من جرّاء انحطاط الإمبراطوريتين البيزنطية والفارسية.

وليس ثمة شيء أكثر مناقضة لرؤية ديناميكية العالم من الاعتقاد تمامًا بأن جميع مشكلات الحاضر والمستقبل قد حلّت. وأنه يكفي أن يعرف المرء عن ظهر قلب صيغ الماضي ليكون بذلك قد أجاب على كل شيء. إن الاكتفاء عكس الدين: فهو يمنع آلاف الناس من أن يروا أن داخل الجاهلية الجديدة للحضارة الغربية المنحطّة يمكن لشريعة "الله المالك وحده. والله هو المهيمن وحده. والله هو العالم وحده" أن تعطي لهم هذا المعنى وتنتزعهم انتزاعًا من قانون الغاب، ومن قانون الأقوى، ومن قانون الفوضى. وبعكس ذلك لو خلط المرء هذه الشريعة الجوهريّة بالفقه المتراكم من قرون ماضية لكان ذلك انفصامًا لعزل الإسلام. وعن طريق تطبيق الشريعة في حقيقتها فقط يمكن للإسلام أن يجد في قرننا هذا ظروفًا مناسبة لانتشاره بأكثر مما حدث في القرن الأول للهجرة ...

برأيي موضوع تجديد الإسلام أو بالأحرى مستقبل الإسلام يتوقف على عدة نقاط أهمها:

١- إن جهود المسلمين من أجل أن يعيدوا مرّة أخرى نشر جميع الأبعاد التي صنعت في الأزمان الغابرة عظمة الإسلام وانتشاره، وبعده العالمي، وكونه لم يقتصر على هذا التقليد والعرف أو ذلك السائد في الشرق الأدنى أو على

ماضيه. بل إنه انفتح على جميع الثقافات وأقرّ التكافل العظيم بين الشرق والغرب للديانات المنزلة، وحكمة بلدان نائية كبلاد فارس والهند والصين.

٢ ـ بعده الداخلي وحبّ الآخرين. فنجد أن كبار الصوفيّين الأندلسيّين كابن مسرة وابن عربي قد دافعوا عن ذلك. ومثلهم البيروني، والإمبراطور (أكبر) خلال عظمة الإسلام في الهند، ضدّ كل الشكليّات والشعائر المتوارثة والحرفية المتجمّدة.

٣ ـ بعده الإجتماعي. مستثنيًا غابة المصالح المتناحرة وتراكم الثروات في بؤرة المجتمع، وعدم ترك البؤس للآخرين.

٤ ـ بعده الناقد ضدّ مجهودات "الفقهيّين" المتناولين للترّهات، والذين يجعلون من أنفسهم حرسًا على التشدّدية، ويعتبرون أنفسهم موظفين للعالم المطلق .

أثبت الشاعر محمد إقبال في مؤلّفه "إعادة بناء الفكر الديني للإسلام" أنه بهذه الروح الناقدة أمكن حفظ الإسلام من دائه الأكبر، ألا هو قراءة القرآن بعيون موتى، أي تكرار ما قاله الأسلاف من القرون الأولى للهجرة، والذين كانت لديهم الأفكار لحلّ المشكلات التي كانت تعترضهم في عصورهم، ولكنها ليست مشاكلنا الآن، وهذا بحدّ ذاته خيانة للقرآن نفسه.

الله الذي لا يتوقّف عن الخلق، وهو الذي نفخ في الإنسان من روحه ليجعل منه خليفة له في الأرض، وهو من يدعوه بدون توقّف، ويدعونا للتفكير في آلائه المتجدّدة على الدوام في هذا الخلق الدائم، لا يسعه إلا أن ينأى عن أولئك الناس الذين يطلبون منه، ولا يعرفون كيف يفكّرون إلا بالعودة إلى الماضي. هؤلاء أكلة الرماد الذين بإصرارهم على تحنيط الإسلام الحيّ يقدّمون أكبر الفائدة لأعداء العقيدة، وهم العقبة

الكؤود أمام خلق حداثة ليست على نمط الحداثة الغربية التي وقعت في براثن الانحطاط، وتعوق أن يكون الإسلام متقدّمًا جنبًا إلى جنب مع أصحاب العقائد المحبّين للمستقبل، وخاصّة أولئك الذين يحبّون انبعاث العالم من جديد.

نبذة عن نصير الدين الطوسي

نصير الدين الطوسي مؤسّس المرصد الفلكي المعروف في مدينة مراغه، كان من أتباع الإمام جعفر الصادق ﷺ ومن شيعته ومواليه المعتقد بإمامته. ولقد اقتبس نهج الإمام جعفر الصادق ﷺ في التقصّي والتحقيق العلمي. وكان هو في الحقيقة من أسّس للنهضة الأوربيّة، لأن كوبرنيك اقتبس منه ومن تلاميذه التقنية الرياضيّة الفلكيّة، والتي استعملها في محاسباته الرياضيّة الفلكيّة، للتوصّل إلى نموذج مركزيّة الشمس، وأيضاً استعمل نموذج (أوردي ليما) – من اختراعات تلميذ نصير الدين الطوسي – للتوصّل إلى نموذج مركزيّة الشمس.

نموذج (أوردي ليما) هو تقنية رياضية فلكية اخترعها مؤيد الدين الأوردي، الفلكي والرياضي والمعماري والمهندس، الذي كان يعمل في مرصد مراغه تحت إشراف نصير الدين الطوسي. ولد في طرابلس في سوريا، ثم سافر إلى مراغه وعمل في مرصد مراغه.

وأيضا ذكرنا في شرح ابن الشاطر الدمشقي ما يلي:-

لاحظ العديد من العلماء أنّ التفاصيل الرياضيّة والحسابيّة لنموذج كوبرنيك الفلكي مطابقة لنموذج ابن الشاطر الدمشقي. وقد علّق نويل سويردلو على أن نموذج كوبرنيك الخاصّ بكوكب عطارد خاطئ. وبما أنه هو نفسه نموذج ابن الشاطر فهذا يشكّل أفضل دليل على أن كوبرنيك كان ينسخ أعماله من مصادر أخرى من دون فهم كامل (أي من دون أن يفهم المحتوى جيّدًا، ومن دون أن يحمّل نفسه مشقّة التقصّي

والتحقيق من المحتوى). وهذا يثبت على الأقلّ أن ابن الشاطر الدمشقي كان له الأثر الكبير على أعمال كوبرنيك.

وقد وجد في عام ١٣٩٣ هجري– قبل ٤٤ سنة فقط أيْ حوالي عام ١٩٧٢– مخطوطات باللغة العربية في بولندا– مسقط رأس كوبرنيك – اتّضح منها بأنّ كوبرنيك كان ينقل من تلك المخطوطات العربيّة وينسبها إلى نفسه.

وابن الشاطر الدمشقي أيضًا استعمل التقنية الرياضيّة الفلكيّة لـ نصير الدين الطوسي المسمّاة (أزواج الطوسي) أو (مزدوجة الطوسي)، وأيضاً نموذج (أوردي ليما) – من اختراعات تلميذ نصير الدين الطوسي – للتوصّل إلى نموذج مركزيّة الشمس.

ومن المؤكّد أنّ موضوع الكتاب ليس نصير الدين الطوسي ولا كبلر ولا كوبرنيك ولا غاليليو ، بل موضوع الكتاب هو الإمام جعفر الصادق عليه السلام. وإنّما نذكر نصير الدين الطوسي بهذا التفصيل كي يتّضح للقارئ حماس تلامذة الإمام عليه السلام، على مدى التاريخ، في البحث والتحقيق العلميّ، كما كان نصير الدين الطوسي وجابر بن حيان (أبو الكيمياء)، كما يسمّيه الغرب.

أبو جعفر محمد بن محمد بن الحسن الطوسي (١٢٠١ – ١٢٧٤ميلادي) المعروف باسم نصير الدين الطوسي، عالم فلكي وبيولوجي وكيميائي ورياضي وفيلسوف وطبيب وفيزيائي ومتكلّم ومرجع شيعي فارسي. وهو معلّم العلّامة الحلّي المعروف.

كان لا ينتمي إلى طائفة الإسماعيليّة – كما تصوّرها البعض لوجوده مع الإسماعيليين في قلعة الموت – بل كان يعتقد في مذهب الإثني عشريّة من البداية. اعتبره العالم والمؤرّخ ابن خلدون أحد أعظم علماء الفرس. في تلك الأيام كانت الطوائف تتعايش مع بعضها البعض في وئام، ولم تكن الطائفيّة موجودة كما هي الآن.

ومع الأسف الشديد، العالم يتقدّم ونحن نرجع القهقرى. فلم تكن هناك فروقات تذكر بين الإسماعيليّة والإثني عشريّة. بل إنّنا لا زلنا نعتبر العهد الفاطمي في مصر وشمال أفريقيا بالعهد الشيعي. فلقد تأسّست أوّل حسينيّة (مأتم الإمام الحسين عليه السلام) – كما نعرفها اليوم - في القاهرة – عاصمة الفاطميّين - قبل حوالي ١٠٠٠ سنة.

ثانيًا إن جميع الطوائف كانت تحضر محضر الإمام الصادق عليه السلام. وحتى أبو حنيفة حضر محضره الشريف لمدة سنتين، لقول أبي حنيفة المشهور: «لولا السنتان لهلك النعمان». وكان مؤسّس المذهب الجعفري الإمام الصادق عليه السلام يتمتّع بالتسامح الديني إلى أقصى حد، حتى أنّ عبّاد الأصنام كانوا يحضرون محضره الشريف كي يستفيدوا من مناهل علمه، كما أسلفنا في محاورة الإمام عليه السلام مع (أبو شاكر) الذي كان من عبّاد الأصنام.

ولد نصير الدين الطوسي في طوس وهي ناحية في منطقة خراسان في شمالي شرق إيران، قريبة من مدينة مشهد. واختلف في سنة ولادته، ولكن أكثر المؤرّخين يعتقدون بأنّه ولد في سنة ٥٩٧ هجرية. وكان والده محمد بن الحسن من الفقهاء والمحدّثين، فتربّى في حجره ونشأ على يده.

تلقّى العلوم المنقولة من والده، والعلوم المعقولة من خاله، وتعلّم الرياضيات من كمال الدين محمد حاسب. وتتلمذ أيضًا على عدّة علماء، من أمثال قطب الدين المصري وكمال الدين يونس الموصلي وأبي السعادات الإصفهاني. ولقّب لكثرة علومه بلقب أستاذ البشر.

وكان قد انتقل من طوس إلى نيشابور، وهو في مطلع شبابه، طلباً للعلم من كبار علمائها.

وفي العشرين من عمره اجتاح المغول بقيادة جنكيز خان منطقة خراسان، وأخذوا بتدمير مدنها الواحدة تلو الأخرى، وقُتل فيها من قتل وفرّ منها من فرّ. حتى ساد القتل والخراب، وأصبح الناس هائمين على وجوههم، لا يعرفون أين المفرّ. لكن قلاع الإسماعيليين كانت صامدة في وجه المغول.

اضطرّ الطوسي للجوء إلى قلاع الإسماعيليين المحصّنة للنجاة من بطش المغول. وكان هذا اللجوء بعد الدعوة التي قدّمها ناصر الدين عبد الرحيم المكنّى بن أبي منصور المكنّى (أبو الفتح)، حاكم قهستان والوالي على قلاع الإسماعيليين، الذي كان مهتمًّا بالعلماء والفلاسفة.

وكتب نصير الدين الطوسي كتابًا سمّاه (الأخلاق الناصريّة) وأهداه إليه. وبقي في بلاطه فترة إلى أن طلبه علاء الدين محمد زعيم الإسماعيليين، والخليفة السابع بعد حسن الصباح. فذهب به ناصر الدين إلى زعيم الإسماعيليين في قلعة الموت. فاستبقاه علاء الدين عنده حتى توفّي. ثم استبقاه ابنه الأكبر ركن الدين خورشاه، آخر الزعماء الإسماعيليين في قلعة الموت.

كان الطوسي الوزير المطلق لدى الإسماعيليين، وقد بلغ عندهم رتبة علميّة، أطلقوا فيها عليه لقب أستاذ الكائنات. علمًا بأن النهضة الإسماعيليّة كانت تستقطب علماء ذلك الزمان للاعتبارات السياسيّة والاجتماعيّة والثقافيّة، أكثر منها للاعتبارات المذهبيّة. لأنّ الإسماعيليين في أوج قدرتهم كانوا يهتمّون بشكل خاص بالبحوث والتحقيقات العلميّة المتقدّمة، وكانوا يحاولون جهدهم أن يجمعوا العلماء الكبار – من مختلف العلوم - في مراكزهم المهمّة، وأن يهيّئوا لهم كلّ الإمكانات اللازمة لنشاطهم البحثي والتحقيقي.

وأحد هذه العلوم التي كان الإسماعيليون يشجّعونها هو علم الفلك، لأن قلاع الإسماعيليين المحكمة – مثل قلعة آلموت – كانت تقع على مرتفعات شاهقة، وكانت مكانًا مناسبًا لعلماء الفلك، كي يرصدوا النجوم والأفلاك ويراقبوها. وأيضًا كانت هناك مكتبة معتبرة كبيرة جدًّا، تحتوي على كتب كثيرة معتبرة، وكان استعمال أدوات وآلات رصد النجوم والأفلاك ومراقبتها متداولًا هناك.

كلّ هذه العوامل المساعدة شجّعت نصير الدين الطوسي بأن يلبّي دعوة الإسماعيليين للإقامة لديهم، وأن يستمرّ هناك في بحوثه العلميّة. حتى وصلت شهرته إلى الصين وإلى بلاط منغول خان. لذلك طلب منه منغول خان أن يؤسّس مرصدًا كبيرًا في الصين. بيد أن نصير الدين الطوسي فضّل أن يبقى في خدمة خورشاه.

كان الغزو المغولي الثاني بقيادة هولاكو حفيد جنكيز خان أكثر ضراوة من الغزو الأول. فحتى قلاع الإسماعيليين كانت عاجزة عن صدّ هذا الغزو.

أرسل هولاكو إلى ركن الدين خورشاه يطلب منه الاستسلام. وبعد إرسال عدّة سفراء من جانب الإسماعيليين، طلب هولاكو مجيء ركن الدين بنفسه للتفاوض. فاستشار ركن الدين خاصّته وأركان دولته، فأشاروا عليه بالتسليم، ليقينهم بأنّ المقاومة ميؤوس من نتيجتها. فمضى ركن الدين وبصحبته أولاده ونصير الدين الطوسي والوزير مؤيد الدين والطبيبان موفّق الدولة ورئيس الدولة، ونزلوا من قلعة آلموت، مخلّفين دارهم التي عمّروها مائة وسبعًا وسبعين سنة.

وكان نزول ركن الدين من القلعة وذهابه إلى هولاكو إيذانًا بانتهاء دولة الإسماعيليين في إيران. فغدر هولاكو بهم وقتل ركن الدين ومن معه، واستثنى من ذلك الطوسي والطبيبين موفّق الدولة ورئيس الدولة، إذ أنه كان عارفًا بمكانة الطوسي العلميّة

والفكريّة، وعلى الخصوص، منزلته عند منغول خان إمبراطور الصين، وعارفًا كذلك بمكانة الطبيبين.

أصبح الطوسي في قبضة هولاكو، الذي لم يكن يهتمّ لا بالفلسفة ولا بالرياضيات التي كان يجيدها الطوسي، وإنما كان مولعًا بعلم التنجيم الذي كان يجيده الطوسي أيضًا باعتباره من كبار علماء الفلك. كما أن الطوسي كان من كبار الأطباء، الذين يحتاجهم أيّ جيش يغزو بلدانًا غريبة، لا يعرف أنواع الأمراض والأوبئة التي توجد فيها. فاحتفظ هولاكو بالثلاثة، وأمر بضمّهم إلى معسكره ووجوب ملازمته أينما ذهب.

وهناك قصّة تروي الحديث الأول الذي دار بين هولاكو ونصير الدين، وكان هولاكو قد سمع بالمكانة العلميّة للأخير في علم الفلك، فقال له: هل أنت تصعد إلى السماء ؟ فأجابه الطوسي: لا. فقال: هل ينزل عليك ملك يخبرك ؟ فقال له: لا. فقال له هولاكو: فمن أين تعرف ؟ قال نصير الدين: بالحساب. فقال: أنت تكذب، أرني من معرفتك ما أصدّقك به.

وكان هولاكو جاهلًا قليل المعرفة. فقال له نصير الدين: في الليلة الفلانية في الوقت الفلاني يخسف القمر. فقال هولاكو: احبسوه، فإن صدق أطلقنا سراحه وأحسنّا إليه، وإن كذب قتلناه. فَحُبِس إلى الليلة المذكورة، فَخُسِف القمر خسفًا بالغًا.

فاتفق أن هولاكو في تلك الليلة قد غلب عليه السكر فنام، ولم يجسر أحد على إيقاظه. فقيل لـ نصير الدين ذلك. فقال: إن لم ير القمر بعينيه وإلا فأغدو مقتولًا لا محالة. وفكّر ساعة ثم قال للمغول: دقّوا على الطاسات وإلا يذهب قمركم إلى يوم القيامة. فشرع كلّ واحد يدقّ على طاسة، فعظمت الغوغاء، فانتبه هولاكو بهذه الحيلة، ورأى القمر قد خسف، فصدّقه وآمن به، وكان ذلك سببًا لاتّصاله بـ هولاكو.

في عام ٦٥٦ هجرية المعادل ١٢٥٨ ميلادية، غزا هولاكو بغداد مركز الخلافة العباسيّة، بأمر من منغول خان إمبراطور الصين، وتمكّن من احتلالها وقتل الخليفة العباسي. وأُحرقت آلاف الكتب، وقُتل عشرات الآلاف من سكّانها، وفرّ من استطاع الفرار، حتى خلت بغداد من السكان.

وتمكّن الطوسي من إنقاذ كلّ العلماء الذين خدموا عند الأمراء الإسماعيليين، من أمثال علاء الدين الجويني وابن الفوطي وغيرهم، وشملهم محبّة هولاكو بعد أن كان مغتاظًا منهم. وبهذا خدم نصير الدين الطوسي العالم الإسلامي والعالم قاطبة، وحفظ للعالمين تراث الحضارة الإسلاميّة والإنسانيّة.

وتمكّن من أن ينتزع من هولاكو أمرًا يقضي بأن يقف عند باب الحلبة، ويؤمّن للناس الخروج من هذا الباب. فأخذ الناس يخرجون جماعات كثيرة. كما استطاع أن ينقذ عشرات الآلاف من الكتب النفيسة والآثار العلميّة، ولعب دورًا كبيرًا في حفظ التراث الإسلامي والإنساني.

كانت الأمّة الإسلاميّة في ذلك الوقت تعاني من الانقسام والانحلال. وكانت الخلافة العباسيّة في بغداد ضعيفة جدًّا، بسبب الانقسامات على السلطة والفساد. وكان الظلم مستشريًا في البلاد الإسلاميّة، وكانت الخلافة العباسيّة من أول نشأتها – إلا القليل النادر – تضطهد العلويين وتقتلهم تقتيلًا.

وبعد فتح بغداد وانتهاء الحاكميّة العباسيّة، تنفّس العلويّون الصعداء من ظلم العباسيين، ونفخ فيهم روح جديدة، وخرج التشيّع من تحت نير الاضطهاد والتقتيل، وبدأت النهضة الشيعيّة بكلّ قوّة، وانتشر المذهب الجعفري في العراق وإيران. وكان لـ نصير الدين الطوسي باع طويل في هذه النهضة.

تمكّن الطوسي بذكائه الفذّ أن يتقرّب من هولاكو وأن يؤثّر فيمن حوله، وتمكّن من إقناع هولاكو ببناء مرصد فلكي كبير. وبالفعل في عام ٦٥٧ هجرية المعادل ١٢٥٩ ميلادية قام بإنشاء المرصد الفلكي في مدينة مراغه (شمال غربي إيران)، وجعل منه أول أكاديميّة علميّة بالمعنى الحديث، حيث جمع فيها أكثر من ٤٠٠ ألف مجلّد تحتوي على نفائس الكتب في مختلف العلوم، وعلى العديد من الكتب التي أنقذت من الدمار في بغداد. كما جمع فيه عددًا كبيرًا من العلماء مثل ابن الفوطي ومحيي الدين المغربي والكثير من العلماء الآخرين.

وبعد فتح بغداد من قبل هولاكو، انكبّ نصير الدين الطوسي على تأسيس المرصد الفلكي المعروف في مراغه (الواقع في الشمال الغربي من إيران)، حيث جمع العلماء من كلّ أنحاء العالم الإسلامي، وحفظ التراث الإسلامي من الدمار، وبدأ حركة البحث العلمي في العالم الإسلامي، على خطوات إمامه وسيّده جعفر الصادق عليه السلام.

كان نصير الدين الطوسي ينظّم الشعر باللغتين العربية والفارسية. ومن شعره العربيّ في حبّ الإمام علي عليه السلام:

لو أنَّ عبـداً أتى بالصـالحاتِ غـداً ... ودَّ كلَّ نـــبيٍّ مرســـلٍ وولي

وصامَ مـا صـامَ صـوَّامٌ بـلا مَلـلٍ ... وقـامَ مـا قـامَ قـوَّامٌ بـلا كَسـلِ

وحجَّ ما حجَّ من فرضٍ ومـن سُـننٍ ... وطاف ما طاف حافٍ غيرُ منتعلِ

وطـارَ في الجـوِّ لا يـأوي إلى أحـدٍ ... وغاصَ في البحر مأموناً من البلـلِ

يكسو اليتامى من الدّيبـاجِ كلَّهُـمُ ... ويُطعـم الجـائعين الـبُرَّ بالعسـلِ

وعاش مـــا عاش آلافـــاً مؤلَّفـــةً ... خالٍ من الذنب معصومٌ من الزلـل

ما كان في الحَشر عنـد الله منتفعـاً ... إلاَّ بحـــبِّ أمـــير المـــؤمنين عـــلي

إن نظرة إلى آثار نصير الدين الطوسي وكتاباته تُظهر أهمية هذا العالِم الفذّ العلميّة حيث أنّ آثاره وكتاباته في مختلف العلوم تظهر مقامه المتألّق في التاريخ الإسلامي والإنساني.

كتب نصير الدين الطوسي في الرياضيّات والمثلثات والجبر والهندسة والحساب والفلك والنجوم والرمل والتقاويم والفقه والطبّ والتاريخ والجغرافيا والتعليم والشعر والمنطق والفلسفة والحكمة والأخلاق والتفسير وعلم الكلام ومعرفة المعادن والموسيقى وغيرها من المواضيع. كما ترجم بعض كتب اليونان وعلّق على مواضيعها شارحًا ومنتقدًا. ومن أشهر مؤلفاته:

١ - كتاب شكل القطاع: وهو أول مؤلّف فرّق بين حساب المثلثات وعلم الفلك. يقول عنه كارا دي فو: إن نصير الدين الطوسي مؤلّف من الصنف الممتاز في علم المثلثات الكرويّة. ترجم هذا الكتاب إلى اللاتينية والفرنسية والإنجليزيّة، وظلّ الأوربيون يعتمدون عليه لعدّة قرون.

٢ - كتاب التذكرة النصيريّة: وهو كتاب عام في علم الفلك، أوضح فيه كثيرًا من النظريّات الفلكيّة. وفيه انتقد "كتاب المجسطي" لـ بطليموس (١٠٠ – ١٦٨). ويعترف سارطون بأنّ هذا الانتقاد يدلّ على عبقريّة نصير الدين الطوسي وطول باعه في علم الفلك.

٣ - كتاب تجريد العقائد.

٤ - كتاب تجريد المنطق.

٥ - كتاب التذكرة في علم الهيئة: الشرح والتعليقات كتبها عبد العلي البرجندي ونظام النيشابوري.

٦ - كتاب زيج الإيلخاني: ويشتمل على حسابات أرصاده التي قام بها خلال ١٢ سنة.

٧ - كتاب قواعد الهندسة.

٨ - كتاب في الجبر والمقابلة.

٩ - كتاب ظاهرات الفلك.

١٠ - كتاب تحرير المناظر في البصريّات.

وقد كتب نصير الدين الطوسي مصنّفاته بالعربيّة والفارسيّة، وتُرجمت كتبه إلى اللاتينية وغيرها من اللغات الأوربيّة في العصور الوسطى، كما تمّ طبع العديد منها.

أكثر آثاره هي بشكل رسائل، ردّ بها على أسئلة العلماء في مختلف العلوم ومن أنحاء العالم كلّه، وكلّها تتألّق بنثر بسيط سهل سلس فصيح بليغ. وترجمت أكثر آثاره إلى مختلف اللغات العالميّة. وقد ذكر المدرّس الرضوي في كتابه (شرح آثار نصير الدين الطوسي) أن كتبه ورسائله تصل الى ١٩٠ عددًا. في حين أنّ المحققين الغربييّن الذين عملوا على آثاره قد تعرّفوا إلى الآن على ٦٤ عددًا من كتبه ورسائله.

كان المفهوم السائد في الوقت الذي عاش فيه نصير الدين الطوسي هو مفهوم مركزيّة الأرض – أيْ أنّ الأرض هي مركز الكون – وانتقد الطوسي هذا النظام وحاول إيجاد بدائل له وحلّ معدّل المسار.

تمكّن الطوسي من إبداع طريقة رياضيّة عُرفت فيما بعد بـ (مزدوجة الطوسي) أو (أزواج الطوسي) نقضت نظرية أرسطو، والتي كانت تنصّ على أن الحركة إما خطيّة وإما دائريّة، حيث أثبت الطوسي بأنّه من الممكن أن تنتج حركة خطّيّة من حركتين دائريّتين. واستعمل هذه التقنية لحلّ إشكالية النظام البطلمي في معدّل المسار للعديد من

الكواكب. لكنّه لم يستطع إيجاد تفسير لحركة عطارد، والتي حُلّت لاحقًا من قبل ابن الشاطر الدمشقي بالاعتماد على تقنية (مزدوجة الطوسي) أو (أزواج الطوسي).

ويعتقد العديد من العلماء بأنّ (مزدوجة الطوسي) أو التقنية الرياضيّة الفلكيّة المسمّاة (أزواج الطوسي) وجدت طريقها إلى مكتبة الفاتيكان بعد سقوط القسطنطينيّة عام ١٤٥٣ لتصل إلى كوبرنيك الذي اعتمد عليها في نظريّته الشهيرة بشأن مركزيّة الشمس، والتي غيّرت علم الفلك جذريًّا وأنهت الاعتقاد السائد بأنّ الأرض هي مركز الكون.

تمكّن الطوسي أيضًا ومن خلال ملاحظاته في مرصد مراغه، والذي كان أفضل المراصد في ذلك الوقت، أن يصنع الجدول الأدقّ لحركة الكواكب في ذلك الوقت في كتابه (الزيج الإيلخاني)، واستغرق ذلك العمل ١٢ سنة. حيث يحتوي هذا الكتاب على جدول فلكي لحساب مواقع الكواكب وأسماء النجوم. وقد استخدم بشكل واسع، حتى اكتشاف نظام مركزيّة الشمس من قبل كوبرنيك. كما استطاع تحديد معدّل الانحراف السنوي، لمحور الأرض وهي ٥١ درجة في كلّ سنة، وهي قريبة من الدرجة المكتشفة حديثًا وهي ٥٠,٢ درجة في السنة.

وتمكّن الطوسي أيضًا من وصف مجرّة درب التبانة وصفًا دقيقًا، حيث قال في كتابه التذكرة، بأنّ درب التبانة مخلوقة من عدد هائل من النجوم الصغيرة المتقاربة. ولشدّة صغرها وتركيزها تبدو كرقع غيميّة قريبة من لون الحليب. وهذا ما تمّ اكتشافه بعد ثلاثة قرون – من عهد نصير الدين الطوسي - عندما استعمل غاليليو التلسكوب ليكتشف بأنّ مجرّة درب التبانة مكوّنة من عدد هائل من النجوم الخافتة.

وفي الكيمياء والفيزياء أبدع نصير الدين الطوسي صيغة لقانون بقاء المادّة، حيث كتب قائلاً: إنّ المادّة قابلة للتحوّل ولكنّها غير قابلة للاختفاء، وبالتالي فقد سبق اكتشاف الأوربيين لهذا القانون بـ ٥٠٠ سنة[٧].

وأيضًا كتب نصير الدين الطوسي في الفقه، حيث ألّف كتاب (تجريد الكلام في تحرير عقائد الإسلام). ويتضمّن الكتاب بين فصوله الستّة إثبات وجود الله، وإثبات صفاته، وإثبات أفعاله، ثم إثبات نبوّة الأنبياء ومعصوميّتهم من الخطأ، وإثبات نبّوة محمد ﷺ، ثم إثبات الإمامة ومعصوميّة الإمام عليه السلام من الخطأ، وإثبات ولاية عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وإثبات المعاد، وإثبات وجود الجنة والنار، ولا زال هذا الكتاب يدرّس في المدارس الشيعيّة.

وقال علاء الدين القوشجي عن هذا الكتاب قائلًا:

إنّه تصنيف مخزون بالعجائب، وتأليف مشحون بالغرائب، فهو وإن كان صغير الحجم، وجيز النظم ، لكنه كثير العلم، عظيم الإسم، جليل البيان، رفيع المكان، حسن النظام، مقبول الأئمّة العظام، لم يظفر بمثله علماء الأعصار، ولم يأت بمثله الفضلاء في القرون والأدوار، مشتمل على إشارات إلى مطالب هي الأمّهات، مشحون بتنبيهات على مباحث هي المهمّات، مملوء بجواهر كلّها كالفصوص، ومحتوٍ على كلمات يجري أكثرها مجرى النصوص، متضمّن لبيانات معجزة، في عبارات موجزة.

وفي المنطق كتب نصير الدين الطوسي شرح الإشارات والتنبيهات لـ ابن سينا.

[٧]: وهذا ما قاله إمامه ومعلّمه الإمام جعفر الصادق عليه السلام قبله بـ ٥٠٠ عام. ولا يخفى بأنّ هذا الاكتشاف وغيره من الاكتشافات، كلّها تدلّ على أنّ نصير الدين الطوسي هو تلميذ الصادق عليه السلام.

أما في علم الرياضيات، فقد كان الطوسي هو أول من كتب في علم المثلثات، بمعزل تام عن علم الفلك، حيث جعل علم المثلثات فرعاً مستقلاً في الرياضيّات البحتة. والطوسي هو أول من استعمل الحالات الستّ للمثلث الكرويّ القائم الزاوية. وهو الذي صاغ قانون الجيب للمثلثات المسطّحة:

$$a/\sin A = b/\sin B = c/\sin C$$

وهو الواضع لقانون الجيب للمثلثات الكرويّة، ومكتشف قانون الظلّ، وأثبت البراهين لكلا القانونين.

توفّي نصير الدين الطوسي في بغداد في يوم الغدير سنة ٦٧٢ هجرية المعادل ١٢٧٤ ميلاديّة، ودفن في الكاظميّة.

سمّيت جامعة نصير الدين الطوسي للتكنولوجيا في إيران نسبة إلى الطوسي تكريماً له. وهناك فوهة صدمية عرضها ٦٠ كيلومتر في الجزء السفلي من سطح القمر سمّيت (نصير الدين). وكوكب (طوسي ١٠٢٦٩) هو كوكب اكتشفه العالم الفلكي السوفييتي نيكولاي ستيبانوفيتش عام ١٩٧٩، وسمّي بالطوسي تخليداً لذكرى نصير الدين الطوسي.

نبذة عن ابن الشاطر الدمشقي

أبو الحسن علاء الدين بن علي بن إبراهيم بن محمد بن المطعم الأنصاري المعروف باسم ابن الشاطر (١٣٠٤ – ١٣٧٥)، عالم فلك ورياضيات، مسلم دمشقي، قضى معظم حياته في وظيفة التوقيت، ورئاسة المؤذّنين في الجامع الأموي بدمشق. وضع ساعة شمسيّة لضبط وقت الصلاة سمّاها (الوسيط)، وضعها على إحدى مآذن الجامع الأموي. صحّح نظرية بطليموس، وسبق كوبرنيك فيما توصّل إليه بحوالي مئتين سنة، ونشر ذلك في كتابه (نهاية السؤال في تصحيح الأصول).

ولد في دمشق، وتوفّي والده وهو في السادسة من العمر، فكفله جدّه ثم ابن عمّ أبيه وزوج خالته الذي علّمه تطعيم العاج، ومنه اكتسب كنيته (المطعّم).

جمع ثروة طائلة واستغلّها في التنقل بين الأمصار لتعلّم الرياضيات والفلك، فاتجه إلى مدن مصر ومدن الشام. وعاد إلى دمشق وواصل علومه في الفلك وصناعة الأسطرلاب الذي نبغ فيه.

صحّح ابن الشاطر المزاول الشمسيّة، التي بقيت تتداول لعدّة قرون، في كلّ من الشام وأرجاء متعدّدة من الدولة العثمانية. ولبّى دعوة السلطان العثماني مراد الأول بتأليف كتب تحتوي على نظريّات فلكيّة ومعلومات جديدة. ومن ذلك قياسه زاوية انحراف دائرة البروج، وتوصّله إلى نتيجة غاية في الدقّة.

وفي هذا يقول جورج سارتون: (إن ابن الشاطر عالم فائق في ذكائه، فقد درس حركة الأجرام السماويّة بكلّ دقة، وأثبت أنّ زاوية انحراف دائرة البروج تساوي ٢٣

درجة و٣١ دقيقة وذلك في سنة ١٣٦٥. علمًا بأن القيمة المضبوطة التي توصّل إليها علماء القرن العشرين بواسطة الآلات الحاسبة هي ٢٣ درجة و ٣١ دقيقة و١٩,٨ ثانية).

أهمّ إنجازات هذا العالم كانت تصحيحه لنظرية بطليموس، التي تنصّ على أن الأرض هي مركز الكون، والشمس هي التي تدور حولها، وأن الأجرام السماوية كلّها تدور حول الأرض مرّة كلّ ٢٤ ساعة.

وكان العالم كلّه في عهد ابن الشاطر يعتقد بصحّة هذه النظرية التي لا تحتمل جدالًا. ويقول ابن الشاطر: (إنه إذا كانت الأجرام السماوية تسير من الشرق إلى الغرب، فالشمس إحدى هذه الكواكب تسير، ولكن لماذا يتغيّر طلوعها وغروبها ؟

وأشدّ من ذلك أن هناك كواكب تختفي وتظهر، سمّوها الكواكب المتحيّرة. لذا الأرض والكواكب المتحيّرة تدور حول الشمس بانتظام، والقمر يدور حول الأرض. وقد توصّل كوبرنيك إلى هذه النتيجة – التي تنسب إليه – بعد ابن الشاطر بأقلّ من مئتين سنة.

لاحظ العديد من العلماء أن التفاصيل الرياضيّة والحسابيّة لنموذج كوبرنيك الفلكي مطابقة لنموذج ابن الشاطر. وقد علّق نويل سويردلو على أن نموذج كوبرنيك الخاصّ بكوكب عطارد خاطئ. وبما إنه هو نفسه نموذج ابن الشاطر فهذا يشكّل أفضل دليل على أن كوبرنيك كان ينسخ أعماله من مصادر أخرى من دون فهم كامل. وهذا يثبت على الأقل أن ابن الشاطر كان له الأثر الكبير على أعمال كوبرنيك.

وقد وجد في عام ١٣٩٣ هجري – قبل ٤٤ سنة - مخطوطات باللغة العربية في بولندا – مسقط رأس كوبرنيك – اتّضح منها بأنّه كان ينقل من تلك المخطوطات العربيّة وينسبها إلى نفسه.

كان نصير الدين الطوسي، بجانب إحاطته بعلم الفلك، رياضيًّا عظيمًا. وقد اخترع تقنية رياضيّة سمّوها (أزواج طوسي) أو (مزدوجية الطوسي)، وذلك لتوضيح حركات النجوم في السماء، أو لتفسير حركات جسمين بالنسبة لبعضهما البعض، أو بعبارة أوضح تبيين حركات دائرتين تقع دائرة منها في داخل دائرة أخرى. وهي بالضبط تقنية رياضية تدور فيها دائرة صغيرة داخل دائرة أكبر، قطرها أكبر من قطر الدائرة الصغيرة ضعفين، أي أنّ قطر الدائرة الصغيرة نصف قطر الدائرة الكبيرة.

دوران الدائرتين تسبّب نقطة على محيط الدائرة الصغيرة، بأن تتذبذب من الخلف إلى الأمام وبالعكس، في خطّ مستقيم على طول قطر الدائرة الأكبر.

إن بعض الفلكيين المعاصرين يسمّون (أزواج طوسي) أو (مزدوجة الطوسي) بجهاز متدحرج ويصفونها كالتالي: دائرة صغيرة تتدحرج داخل دائرة أكبر ثابتة. بيد أن نصير الدين الطوسي نفسه يصفها كالتالي:

إذا كان هناك دائرتان على سطح مستوي، بحيث أنّ قطر الواحدة هو نصف قطر الثانية، وإذا تماسّا داخليًّا في نقطة واحدة، وإذا ركّزنا على النقطة المماسّة على الدائرة الأصغر، وإذا تحرّكت الدائرتان في اتجاهين متضادّين، بحيث أنّ حركة الدائرة الأصغر أسرع من الأكبر بضعفين، وبحيث أن الدائرة الأصغر تكمل دورتين مقابل دورة واحدة للأكبر، فإنّ تلك النقطة (التي ركّزنا عليها) تبدو وكأنّها تتحرّك طوليًّا على قطر الدائرة الأكبر، والتي تحرّكت من البداية عبر نقطة التماسّ، متذبذبة بين طرفي قطر الدائرة الأكبر، وهي لا تزول عن هذا الخط أصلًا.

إن هذه التقنية الرياضيّة سهّلت الطريق لابن الشاطر الدمشقي، ومن بعده كوبرنيك، إلى التوصّل إلى نموذج مركزيّة الشمس.

إنّ الفلكي والرياضي الإيراني نصير الدين الطوسي قدّم هذه التقنية المسمّاة في الأوساط العلميّة بتقنية (أزواج الطوسي) أو (مزدوجة الطوسي) في كتابه (تحرير المجسطي)، والذي كتبه في عام ١٢٤٧ ميلادي، وذلك كحلّ لتفسير الحركات العرضيّة للنجوم.

إنّ المؤرّخين يشكّون بأنّ كوبرنيك، أو أي كاتب أوروبي آخر، قد توصّل إلى النسخة العربية لهذه التقنية الفلكيّة بطريقة ما. ولأن كوبرنيك استعمل تقنية (أزواج الطوسي) أو (مزدوجة الطوسي) في فلكيّاته الرياضيّة ، فإن هناك إجماعًا عند المؤرّخين بأنّه اطّلع على هذه التقنية بطريقة ما.

ويعتقد أن تقنية (أزواج الطوسي) أو (مزدوجة الطوسي) قد وصلت إلى أوروبا بشكل مخطوطات أصليّة، لأنّ من الممكن أن يكون كوبرنيك استفاد منها من دون ترجمة الأصل العربي إلى اللاتينية. ومن الممكن أيضًا أن مخطوطات نصير الدين الطوسي قد تُرجمت من قبل العلماء البيزنطيين من العربية إلى اليونانيّة البيزنطيّة، لأنه لا زالت توجد المخطوطات اليونانيّة البيزنطيّة، والتي تتضمّن تقنية (أزواج الطوسي)، في إيطاليا.

نموذج (أوردي ليما) هو تقنية رياضية فلكية اخترعها مؤيد الدين الأوردي، الفلكي والرياضي والمعماري والمهندس، الذي كان يعمل في مرصد مراغه تحت إشراف نصير الدين الطوسي. ولد في طرابلس في سوريا، ثم سافر إلى مراغه وعمل في مرصد مراغه.

يعتبر الأوردي من الأوائل من بين الفلكيين في مرصد مراغه، الذي طوّر نموذجًا لحركات النجوم على خلاف نموذج بطليموس، وعلى الأخصّ النموذج الذي سمّي (أوردي ليما)، والذي استعمل فيما بعد من قبل ابن الشاطر الدمشقي في القرن الرابع عشر

لنموذج مركزيّة الأرض، واستعمل من قبل كوبرنيك في القرن السادس عشر لنموذج مركزيّة الشمس.

أخاطب الغرب وأقول له: إن ما توصّلتم إليه حديثًا من اكتشافات عجيبة في علم الفلك بالنسبة إلى مرحلة (السائل المطلق) في باكورة نشوء الكون، قد سبقكم إليها إمامنا علي عليه السلام قبل ١٤٠٠ عام بالتفصيل في خطبته عن نشوء الكون. وإن ما توصّلتم إليه منذ أقلّ من عشرين سنة من اكتشافات حول المادة المضادة، قد سبقكم إليها إمامنا جعفر الصادق عليه السلام قبل ١٢٠٠ عام. بل إن تلاميذ إمامنا جعفر الصادق عليه السلام، من أمثال نصير الدين الطوسي، بتقنياتهم الرياضيّة المسمّاة (مزدوجة الطوسي)، وأيضًا نموذج (أوردي ليما)، وبأرصادهم الفلكيّة في مرصد مراغة، قد وضعوا حجر الأساس للنهضة الأوربية قبل كوبرنيك بـ ٢٠٠ عام.

www.taqimusawi.com